النص الحجاجي في "البيان والتبيين" – دراسة في نص من كتاب العصا

د/ ليلى جغام

قسم الآداب واللغة العربية

جامعة محمد خيضر بسكرة

توطئة :

يتحدّد غرضنا في هذه المداخلة في تناول نص من النصوص القديمة، تناولا يمكن القول عنه أنّه حديث، مراعاة منا لموضعه في ما ورد فيه من نصّه الأصل، إذ كان حجّة وبرهانا يستدلّ به في موضعه ذاك، ولزاما لذات الموضع كان التناول لهذا النص، الذي هو جزء من نص أكبر عنون في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ بكتاب العصا، والذي شغل مساحة كبيرة من الجزء الثالث من الكتاب .

وقد تحدّدت هذه المداخلة في عناصر جاء أوّلها في التعريف بالحجاج عند أهل الاختصاص، وتضمّن ثانيها خصائص النص الحجاجي، واحتوى ثالثها وصفا لما ورد في كتاب العصا، وما كان موضعه من كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وتعلّق رابعها بتطبيق مجموعة من الإجراءات المنهجية لتحليل النص المختار نموذجا لهذه الورقة البحثية وفق طريقة حجاجية .

1 – مفهوم الحجاج :

الحجاج في اللغة من حاجّ، قال ابن منظور: « حاججته أحاجّه حجاجا ومحاجّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت ا [...] وحاجّه محاجّة وحجاجا نازعته الحجة [...]، والحجّة الدليل والبرهان » [1]، وورد في مختار الصحاح أن : « الحجة هي البرهان، وحاجّه فحجّه من باب ردّ؛ أي غلبه بالحجة، وفي مثل: لجّ فحجّ فهو رجل محجاج بالكسر أي جدل، والتحاجّ التخاصم، والمحجّة بفتحتين جادّة الطريق » [2] .

ولعلّ معناه في الاصطلاح الخوض فيه صعب، غير أنّنا يمكن أن نذكر لذلك محدّدين أساسين اتفق عليهما كل من درس الحجاج، الأوّل هو كونه خطابا إقناعيا، أي أن هدفه التأثير في المتلقي، إما لتدعيم موقفه، وإما لتغيير رأيه وتبني موقف جديد [3] .

وهذا المحدد لا يتعلّق بالشكل اللغوي أو بمحتوى الخطاب، ولكن بوظيفته الكلية، فالنص الحجاجي لا يمكن أن يعرف من خلال خصائص شكلية لغوية (مثلما يفعل بالأشكال الخطابية) ، إذ أنه يمكن أن يتواجد مع الوصف أو مع السرد أو مع الشعر أو مع غيرها [4] .

ويعرّف الحجاج في محدّده الثاني بأنه بعد جوهري في اللغة ذا ا، مما ينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل، واللغة فإن ثمة استراتيجية معينة نعمد إليها، لغويا وعقليا، إما لإقناع أنفسنا وإمّا لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته، وهي تستمد خصوصيتها وقيمتها من الحقل الذي تتحقق فيه، ويعطيها الشرعية، وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس وقيمهم، أو يكون هو الفكر، والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا وتجريدا [5] .

فالحجاج إذن طريقة في الاستشهاد والتمثيل دف إلى التأثير والإقناع، إذ هو « خطاب صريح أو ضمني يستهدف الإقناع والإفهام معا، مهما كان متلقي هذا الخطاب ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك » [6]، فهو في أبسط تعاريفه، وأكثرها شيوعا خطاب هدفه التأثير في المتلقي، وإرادة إذعانه لرأي أو موقف ما، أي إقناعه به، وتوجيهه للعمل وفقه .

2 – خصائص النص الحجاجي :

والبحث في خصائص النص الحجاجية هو بحث ينطلق من بنية النص، إذ تتميّز بعدد من الصفات التي تجعل من النص منفردا بين أنواع النص الأخرى (كالوصفي، والحواري، والخبري، والسردي ...)، وهذا لا يعني البتة أنّ النص الحجاجي ينشأ منفصلا عن هذه النصوص، بل قد يتزاوج مع أحدها في بنية واحدة، وقد يتواجد مع تميّزه بجوار هذه النصوص، فقد يكون مثلا مع السرد، ومع الوصف، ومع الخبر، ومع الحوار، وفي ذات الوقت يصنع صورته الخاصة .

فالنص الحجاجي ذو غاية محدّدة، يروم حمل متلقيه على الإيمان ـا أو تبنيها أو العمل بمقتضاها، ومن المنطقي أن يكون موضوعه خلافيا، ليس على مستوى الموضوع فحسب، ولكن أيضا على مستوى البناء الذي لا ينفصل عن موضوعه [7]، وذلك الخلاف هو « المحرّك الفاعل الذي يوجّه الموضوع ويحدّد الاختيارات اللغوية والمستويات الأسلوبية والبناء الكلي للنص، وهذا اشتراط جوهري أولي » [8] .

ويتحدّد النص الحجاجي ببناء نصي متميّز، حيث يتركّب من جمل تربط بينها علاقات، تقوم على نوعين من الربط، إمّا ثنائي بين جملتين، أو جمعي بين أكثر من ذلك، ويطلق على الأول ربط مباشر قريب، ويسمى الثاني بغير المباشر والمتوسط الذي يكون بين جمل متباعدة عن بعضها [9].

كما يتّسم النص الحجاجي بسمتين تتصل إحداهما بالأخرى؛ الأولى الاقترانية، وتعني الارتباط العام والكلي داخل النص، والذي تتماسك فيه كل عناصر البناء النصّي، جملا وروابط وعلاقات، وأما السمة الثانية فهي ما يطلق عليه الاستدلالية، وهي ما يؤسّس اقتران عناصر النص ككل بنيوي [10] .

وتتوزّع أشكال الاستدلال في النص الحجاجي لاعتبارين، ينتج كل اعتبار صنفين من الاستدلال، فالاعتبار الأول يكون الاستدلال فيه إمّا تدريجي، يتمّ الانتقال فيه من المقدّمة إلى النتيجة، وإمّا تقهقري يحدث الانتقال فيه من النتيجة إلى المقدّمة، وأمّا الاعتبار الثاني فينتج عنه الاستدلال الظاهري، وهو الذي يصرّح فيه بالدلالة وبالعلاقات بين عناصر الاستدلال، والاستدلال الإضماري، وتكون فيه الدلالة مضمرة، وكذلك العلاقات بين عناصر الاستدلال [11] .

ونحن في ورقتنا البحثية هذه نحاول أن نستبين ذلك من خلال تطبيق عدد من الإجراءات المنهجية لتحليل نصّنا موضوع الدراسة، وهو جزء من نص أكبر عنونه الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بكتاب العصا .

3 – موضع كتاب العصا من مدونة الجاحظ "البيان والتبيين" :

والمقصود بهذا العنصر من الورقة البحثية تحديد موضع كتاب العصا من مدونة الجاحظ "البيان والتبيين"، إذ الملاحظ أنّه يحتلّ مساحة واسعة من المدونة، خاصة في الجزء الثالث منها، فنجده في صدارة الجزء وفاتحته، حيث يقول صاحب المدونة، عمرو بن بحر الجاحظ في فاتحة الجزء : « هذا أبقاك الله الجزء الثالث، من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطّعات المتخيّرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة . ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ... » [12] .

والمخصرة في بعض معانيها العصا، وإذ ذاك هي مطعن من مطاعن الشعوبية بحق العرب، وما ذكرها في هذا الموضع من مدونة الجاحظ، واحتلالها لهذا المكان منها إلا دفاعا من الجاحظ على حق العرب، وردا منه لمطعن الشعوبية بشأ نهم، « ولو لا ما جاء فيه من إشارة إلى مطاعن الشعوبية على العرب في ما وقعوا فيه، على حدّ قولهم، من خطل الرأي وسوء التقدير في عقد الأواصر بين تأتي القول والاقتدار عليه والمسك بالعصي والقسي والتزين بالمخاصر، ما انتبه المهتمون بمؤلفات الجاحظ إليه ولكان حظّه حظّ كثير من أبواب البيان والتبيين لا وجود لها إلا من جهة تظافرها لبناء صورة الكتاب » [13] .

وذاك دليل على أنّ ذكر العصا على ما ذكرت عليه في موضع الدفاع سبب في انتباه المهتمين بدراسة آثار الجاحظ، فقد « استغلّت الدراسات هذا الحيّز استغلالا واسعا وانتبهت إلى أنّ هذا المطعن الأول لم يكن إلاّ مدخلا إلى مطعن آخر أبعد مدى وأقدح ضررا وهو سلب العرب القدرة على البيان والمباعدة بينهم وبين ما كانوا يعتبرونه معقد تفوقهم ومبرّر غلبتهم وسلطا نم ... » [14]، أي بلاغة العرب وبيا نم .

وهذا وجه من مجموع وجوه مثّلتها العصا في دفاع الجاحظ ضدّ مطعن الشعوبية، فوجود كتاب العصا في مدونة الجاحظ « سعيا في إعادة ترتيب الأمور ترتيبا يبوئ البلاغة العربية منزلتها بين بلاغات الأمم، ينافح عنها، ويناضل دو نا، ويقيم الأدلّة على ما أدركته في المزية من محل، شقت منظومة القيم الطريق إليه، وكانت خصيصة أمة موعودة بنصّها المعجز ومضمار فخرها الذي ضاق عن سائر الأمم » [15]، وقد رسم الجاحظ لصور نا تلك ما يعلي شأ نا ويرفع من مكانتها، فجعلها رمزا للنبوة، في إشارة إلى عصا سليمان وعصا موسى وعنزة الرسول

محمد صلّى الله عليه وسلّم، وذكر لها شؤونا أخرى مما لا يتّسع المقام لذكره وتعداده، ونحن إذ ذاك نأخذ لها رواية مما ذكر، ونفصّل القول فيها وصفا وتحليلا .

4 – التحليل الحجاجي لنص من نصوص كتاب العصا :

وتتهيكل إجراءات ذلك وفق عدد من المراحل أو النقاط التي تكون عادة محور بناء النص موضوع الدراسة، والتي يمكن تحديدها في ما يأتي :

أ – تحديد السياق النصّي :

يتموضع النص موضوع الدراسة ضمن سياق نص أكبر عنونه الجاحظ بكتاب العصا، الذي شغل الدفاع عنها « الحيّز الأوفر من الكتاب فقد انطلق من الصفحة الثلاثين وامتدّ إلى الصفحة الرابعة والعشرين بعد المائة . وإنّ عدد الصفحات لدال على ما أولاه أبو عثمان المسألة من أهمية [...] ومهما يكن من أمر فإنّ ما وسعه إنجازه أبرز حرصه على أن يحيط بالعصا من حيث هي ومن حيث منزلتها لدى من ثبتت منزلته ومن حيث الانتفاع بـ ... » [16] .

والنص حكاية يرويها الجاحظ على لسان غيره قائلا : « ثمّ قال الشرقيّ : ولكن دعنا من هذا؛ خرجت من الموصل وأنا أريد الرّقّة مستخفيا، وأنا شاب خفيف الحاذ [*]، فصحبني من أهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله، فذكر أنّه تغلبي، من ولد عمرو بن كلثوم، ومعه مزود وركوة [*] وعصا، فرأيته لا يفارقها، وطالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ أرمي بـ في بعض الأودية ... » [17]، ودارت الرواية حول منافع العصا، التي أظهرها التغلبي، وأدركها وعدّدها الشرقي .

ب – تحديد موضوع الحجاج :

وتحديد الموضوع هنا لا يرتبط بالرواية أو النص موضوع الدراسة فقط، بل ذاك جزء من كل، لأن هذه الرواية هي جزء من مجموع أخبار وروايات وأشعار وآيات وأحاديث نبوية تشير إلى فضل العصا وعلو شأ ـا، وقد أشار النويري إلى ذلك بقوله : « من الحكايات التي اعتمدها الجاحظ في ابراز مناقب العصا تلك التي ساقها عن الشرقي في خبره عن رحلة كانت له مع فتى تغلبي من الموصل إلى الرقة . كان الأول فيها هو الراوية وثاني شخصيتين هما كل شخوصها . إلا إذا عددنا العصا الشخصية الثالثة إذ سرعان ما بدت محور الحكاية وغايتها في آن معا، كأ ّـا لم تكن إلا من أجلها ... » [18] .

فالعصا في هذا النص هي محور الحجاج وقضيته، وكل ما فعله التغلبي على مدار الرحلة من استثمار للعصا هو محاولة منه لجلب انتباه الشرقي لنفع العصا وجمّ فوائدها، وهو الذي تذمّر لملازمته لها وحمله إيّاها، حتى وصل به الأمر أن أراد رميها في بعض الأودية أثناء الرحلة .

ج – تحديد أطراف القضية :

صاحب الأطروحة المقترحة	صاحب الأطروحة المدحوضة	الطرف الثالث (الحكم)
الجاحظ	الشرقي	التغلبي

وبيان ذلك أنّ الجاحظ هو صاحب الأطروحة المقترحة، أي الإعلاء من قيمة العصا، والرفع من شأ ـا، ردا على مطعن الشعوبية ضدّ العرب وافحاما لها، والملاحظ أنّ الشرقي يمثّل الرأي المدحوض، أي رأي الشعوبية، مما ترى من أنّ العصا في عرف العرب، لأ ّـم أهل بداوة، وقد تعوّدوا حملها في الرعي والجري وراء دوا ـم، فالتصقت ـم، ولا علاقة لها تذكر بالبلاغة ولا بقول الشعر وإلقاء الخطب .

وأمّا الطرف الثالث، وهو الحكم، ويمثّل شخصية التغلبي، فقد اتخذه الجاحظ دليلا وشاهدا ومعينا له على إثبات ما يريد إثباته في ذهن مخاطبه، إذ كل ما قام به من أفعال ضمن الحكاية، والتي هي تسلسل لأحداثها، إثبات للقضية المقترحة من قبل الجاحظ، ودحض لما يريد دحضه من رأي الشعوبية، وربما قلنا أنّ التغلبي في حكايته هو الجاحظ في موقفه، وقد نتفاءل أكثر فنقول أ ّـا حكاية صغرى ضمن حكاية كبرى، تعكس كلّ أطرافها، فالتغلبي هو الجاحظ في موقفه، والشرقي هي الشعوبية في عنجهيتها وغرورها وطعنها في العرب، رسم لها الجاحظ من وراء الحكاية اقتناعا بموقفه، وتراجعا وإذعانا عمّا كانت تدّعيه .

د – تكثيف الموضوع :

ويتحدد هذا العنصر في مجموعة من الأسئلة ينبغي الإجابة عنها، وهي كما يأتي :

- ما هي الأطروحة التي يرفضها المرسل ؟
- ما هي محتويا ـا ؟
- ما الحجج التي تستند عليها الأطروحة المدحوضة ؟ كم عددها ؟
- ما هي الأطروحة التي يبرهن المرسل على صدقها ؟
- ما هي الحجج التي يقدّمها ؟

وفي سبيل الإجابة على ذلك نقول على الترتيب :

- الأطروحة التي يرفضها المرسل (الشرقي) هي كون العصا لها منافع وفوائد
- ما يقدّم من إشارات لفضل العصا وعلو شأ ـا .
- الحجج التي تستند عليها الأطروحة المدحوضة هي كلّ ما قدّمه الجاحظ في نصّه من فوائد للعصا، برهن عليها التغلبي، وعدّدها الشرقي ثمانية خصال، وربما كانت أكثر من ذلك حيث يقول الشرقي في ختام النص : « والله لو حدّثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفذ ـا » [19] .
- عدم وجود منافع تذكر للعصا .
- رفض وجود العصا بين حاجات التغلبي، ومحاولة رميها أكثر من مرّة، ودليل ذلك قوله : « ... فصحبني من أهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله، فذكر أنّه تغلبي، من ولد عمرو بن كلثوم، ومعه مزود وركوة وعصا، فرأيته لا يفارقها، وطالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ أرمي ـا في بعض الأودية ... » [20] .

هـ – الخطاطة الحجاجية :

الأطروحة المدحوضة	عمليات الحجاج	الأطروحة المقترحة
كون العصا دون فوائد تذكر	فوائد العصا التي حاول التغلبي إظهارها من خلال توظيفه للعصا في عدد من المهام والمواقف	العصا ذات فوائد عديدة لا تحصى

و – البناء النصّي (بناء الحجاج) :

المقاطع النصية	حيّزها النصي	أطروحتها	الحجج والأدلة
المقطع 1	من بداية النص «ثم قال الشرقي ... » إلى «ومعه مزود وركوة وعصا »	وضع المتلقي في جو الحادثة أو الرحلة .	-ذكر اسمي الشخصين . -ذكر نقطي انطلاقها والوصول إليها . - ذكر متاع التغلبي .
المقطع 2	من «فرأيته لا	تذمر الشرقي من اهتمام	-محاولة الشرقي رمي عصا التغلبي في بعض

	يفارقها ... » إلى «فكدت من الغيظ أرمي ـا في بعض الأودية ... »	التغلبي بالعصا .	الأودية أثناء الرحلة . -استهانته بشأ ـا . - ضحكه واستهتاره لاهتمامه ـا .
المقطع 3	من «فكنّا نمشي فإذا أصبنا دوابّ ركبناها ... » إلى «ثمّ كلّمه من جوف شجرة ولم يكلّمه من جوف إنسان ... »	سؤال الشرقي التغلبي عن شأن العصا وجوابه بتمثيله لعصا موسى .	- استدعائه لقصة سيّدنا موسى .
المقطع 4	من «قال الشرقي : إنّه ليكثر من ذلك وإني لأضحك متهاونا بما يقول ... » إلى «وإذا أظرف الناس كلّهم وأكثرهم أدبا وطلبا »	استهانة الشرقي بكلام التغلبي عن العصا، وأفعال التغلبي وانتباه الشرقي لمقاصده من ذلك .	- ضحك الشرقي واستهزائه .
المقطع 5	من «فخبّرته بالذي أحصيته من خصال العصا ... » إلى «والله لو حدّثك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفذ ـا ... »	تعداد الشرقي لمناقب العصا التي ضمّنها التغلبي أفعاله خلال الرحلة، واقتناعه أخيرا بفوائدها .	- قول الشرقي عند كل حادثة : هذه واحدة ... هذه ثانية ...

ز – وسائل الإقناع :

المعجم	تنوع معجم النص بين الأسماء والصفات، لأنّه عبارة عن وصف لرحلة قام ـا الشرقي مع التغلبي، سعى فيها الأول إلى القدح في العصا، وبذل الثاني جهده لبيان فوائدها، فنجد أسماء الحيوانات (دواب، حيّة، أرنب، حمار)، وأسماء العصا وبعض ما يدلّ عليها (عصا، عويد، وتد، ...)، وأسماء الأمكنة (الموصل، الرّقة، الأودية، الخان، الواد المقدّس، البقعة المباركة، البيوت، البيعة أي كنيسة النصارى) ...
التركيب	تبدو تراكيب النص منتظمة تعبّر عن تسلسل أفكاره الرئيسية والفرعية، حيث نلحظ ذكر العصا في بدايته، باعتبارها إحدى حاجات التغلبي، ثم افرادها بالحديث، وجعلها محور الحادثة ومدارها في وسطه، لتكون الخلاصة للإقناع بفائد ـا، ونفي القدح فيها.
أدوات الربط	وتختلف أدوات الربط في الحجاج، باعتبار اللغة حجاجية بطبعها، ونجد من أدوات الربط مثلا : الترتيب (واحدة، ثانية، ثالثة ...)، والتوضيح (مثله،كأنّه ...)، الشرط (لو، إذا، لو أنّ ... لما، لو ... لما، ...)، الاستدراك (لكن، بعد أن ...)، العطف (الواو، الفاء، حتّى، ثمّ، ...)، التوكيد (قد، أنّ، إنّ، القسم، اللام، ...)، الإشارة (هذه، تلك، ...)، العموم (جميع ذلك، كلّهم، ...) ...
الأساليب	غلب على النص الأسلوب الخبري لأنّه المناسب لغرضه، فهو وسيلة الحكي وأداته، ولم يغب مع ذلك الإنشاء الطلبي وغير الطلبي، من مثل النفي والأمر .
الصور البلاغية	كاد النص يخلو من الصور البلاغية، وهذه ميزة نص الحكاية في الغالب، لولا وجود بعض التشابيه خاصة البليغة منها، واستعارة واحدة (سكن القرم) .
التجانس الصوتي	لم يحفل صاحب النص كثيرا بالتجانس الصوتي لطبيعة الغرض، غير أنّه لأهمية التجانس في إذعان المتلقي لغاية صاحب النص وجدنا فيه بعضا من ذلك مثل الجناس الناقص بين (استراح، أراح، المراح) .
الضمائر	تنوّعت الضمائر بين المتكلّم والغائب، فكان المتكلّم هو الشرقي، والغائب هو التغلبي، وعلاقتهم ببعضهما هي علاقة رفيقي سفر، هذا ظاهر الدلالة، غير أنّ باطنها في حدود تأويلي المتكلّم هو الشعوبية، والغائب هو الجاحظ، وكان يأمل أن تقتنع الشعوبية في الأخير بأهمية العصا كما اقتنع الشرقي .
نظام الأزمنة والأمكنة	تموضعت أغلب الأفعال المتضمنة في النص في الزمن الماضي، مع وجود بعض الإشارات

	إلى المضارع أو الأمر أحيانا، وكانت الأمكنة شاملة لكل تنقلا ـما خلال الرحلة، انطلاقا من الموصل إلى طريقة الغابة، إلى الحانة، إلى منزل التغلبي .
علامات الترقيم	تضمن النص عددا من علامات الترقيم، وكثرت الفاصلة من بينها، وتراوحت العلامات الأخرى وجودا وغيابا، مع بعض موضع النبر والإيقاع في النص .

ح – بسط المسار الحجاجي للنص :

والقصد من هذا العنصر إبراز طريقة الطرح التي وظّفها صاحب النص، إذ نجد أنّ الأصل في هذا الطرح أنّه وقع بطريقة غير مباشرة، ولكن وردت إشارات كثيرة توحي بالغاية المرجوة من هذا الطرح، إذ كون العصا محور النص دليل على أنّ التركيز عليها مقصود من قبل صاحبه .

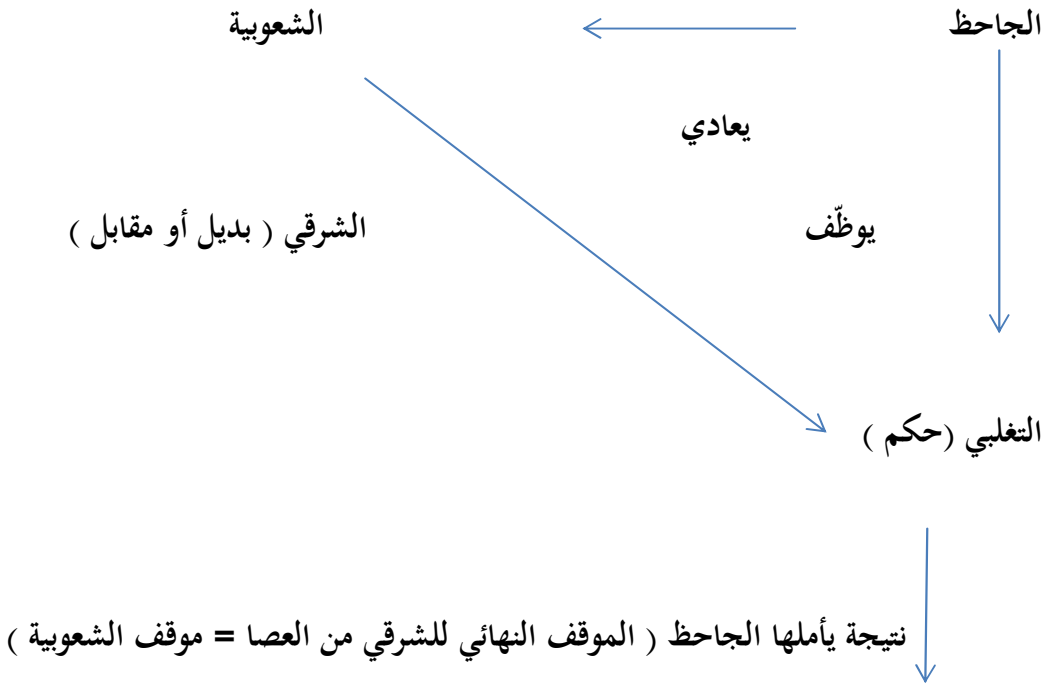

وما يشير إليه النص رسم تقريبي بين العلاقة الظاهرة لأطراف القضية، والعلاقة المراد إثبا ـا، إذ الجاحظ، وهو صاحب النص الأصل يتخذ من الشرقي بديلا عن الشعوبية، الطرف الذي يناظره (يعاديه)، ويريد إدحاض حجّته، فيجعل من التغلبي حكما لتحقيق ذلك، وتراوده غاية يريد الانتهاء إليه، فيرسم أحداثا للحكاية تقوده في ـاية المطاف إلى ما يأمل، أي إذعان الخصم إلى الرأي المراد .

ط – المؤشرات والأدوات الحجاجية :

وتتلخّص في صنفين، وكلاهما تضمنه الوسائل الإقناعية، فنجد ما يسمى بالروابط الحجاجية، « وهي التي تربط بين حجّتين أو قولين أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة » [21]، وهي أدوات الربط المشار إليها في الجدول الخاص بوسائل الإقناع .

أمّا الصنف الثاني فهو ما يسمى بالعوامل الحجاجية، « وتقوم بحصر تقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل : ربما، تقريبا، قليلا، كثيرا، ما ... إلاّ، وجل أدوات القصر... » [22]، وبعض ذلك حاضر في النص المدروس .

في حين أنّ الصنف الثالث هو الاستعارة « وتعتبر من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلّم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنّها من الوسائل التي يستعملها بشكل كبير ... » [23]، بل من أقوى صور الحجاج الموظّفة عند أهل الاختصاص، ومن أكثرها فاعلية، رغم أنّ وجودها في هذا النص ليس بالكبير .

س – سمات الحجج اللغوية :

وتتعلّق هذه السمات حسب ما ورد عند الأغلب ممن تناولوا ذلك بالسياق، والنسبية والإبطال [24]، والتفصيل في ذلك يتدرّج في النقاط الآتية :

- **السياق** : ويبدو السياق في النص المتناول ذا فاعلية، حيث يظهر للمطّلع أنّ الجاحظ يتّخذ من هذه الروايات والأخبار طريقا لإثبات حجّته على الشعوبية، وبيان ذلك أن يجعل جزء ليس بالهيّن من كتابه "البيان والتبيين" يعنونه **بالعصا**، وخلال حديثه ذاك يسوق عددا من الأحاديث والأخبار والروايات الدالة على تعظيم شأن العصا، والإعلاء من مكانتها، إذ يتدرّج في الانتصار لها من أجل نفي ما نسب للعرب في صورها، ويبلغ بها مبلغا كبيرا، فيجعلها رمزا للنبوة، وذلك ما جاء بعضه في هذا النص، حيث نجد التغلبي يحاجج الشرقي بشأنها بتمثيله لقصة موسى عليه السلام، وهو ليس إلا صورة لحجاج الجاحظ، الذي كان بعصا موسى، وعصا سليمان، وعنزة الرسول الكريم عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

- **النسبية** : ونسبية هذا الحجاج تتعلّق تعلّقا كبيرا بسياقه، فيما أرى، لأنّ توظيف الحكاية في غير هذا السياق قد ينحرف ـا عن غايتها الحجاجية تلك، كما ترتبط نسبية الحجج بمدى قوّ ـا، وقوّة إبطالها لبعضها، حسب ورودها، فبروز حجّة ما عن الأخرى تجعلها أقوى منها وأكثر حجّية، وذلك مثاله في ما حاول الجاحظ إثباته من خلال استدعائه لمختلف الأحاديث والأخبار بشأن العصا، فبعضها كانت له القوّة، خاصة ما تعلّق ب**حجاج السلطة**، كما يدعوه أهل الحجاج، والذي يظهر جليا في أخبار الأنبياء، وآيات الذكر الحكيم .
- **القابلية الإبطال** : ويشار بشأن ذلك إلى أنّ « الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي، وسياقي، بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي » [25]، والتحكّم باللغة هو تحكّم بالحجاج، لأ ّـا حجاجية بطبيعتها، فمن جعلها طيّعة في يده، أدارها كيفما شاء، ووظّفها لصالحه ولصالح حجاجه كيفما أراد، فقد تستعمل العبارة بطريقة ما لإثبات حجّة ما، وقد تكون بطريقة أخرى سببا في دحض نفس الحجّة .

خلاصة عامة :

تماما لما شرعنا فيه في هذه الورقة البحثية نصل إلى أنّ الحجج عند الجاحظ اتّخذت طابع النصوص الكاملة، سواء كانت قصص أو حكايات أو أخبار، والملاحظ عليها أ ّـا تتّسم بسمات الحجاج في كلّ صورها، كما يمكن تمفصلها إلى حجج مفردة، أو مركّبة، لتفيد غرضها وتحقّق غايتها .

والجاحظ في حجاجه ينوّع توظيفها، من اللغة، إلى الصور البلاغية، إلى حجاج السلطة، إلى التمثيل، إلى الخبر، إلى المقولة، وقد يجمع كل ذلك، في صورة متناسقة تنمّ عن وعي كامل، وإدراك عميق بما يجري، فضلا على أنّ قد يباشر في رسم حججه، وقد يبطنها، مع إشارة خفيفة يفهمها من تتبّع موضوعه وصوره .

تلعب اللغة الدور الأكبر في حجاج الجاحظ، لأنّه رجلا أتقن اللغة، وأدرك أسرارها، وكان من الغيورين عليها، وعن مجدها، فتحكّم ا، ووظّفها في إدراك غاياته، وأقنع به، وقد تتكشّف عند غيري غايات أخرى لم يصل إليها فكري، ولا أدركها جهدي، لأنّ جهد البشر لابدّ قاصر ومتجاوز .

هوامش المداخلة :

---

(1) – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997 م، مج 2، مادة حجج، ص 27، 28

(2) - الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1967، مادة حجج، ص 122، 123

(3) – كورنيليا فون راد – صكوجي، الحجاج في المقام المدرسي، وحدة البحث في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، 2003، ص 13 .

(4) – نفسه، ص 13 .

(5) – حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي – عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، مجلة دورية تصدر عن ا لمس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الأول، ا لمد 30، يوليو – سبتمبر 2001، ص 99، 100 .

(6) – نفسه، ص 99

(7) – محمد عبد الباسط عيد، في حجاج النص الشعري، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2013، ص 43 .

(8) – نفسه، ص 43 .

(9) – علي آيت أوشان، ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلمات : الصورة – الحجاج – المقارنة – الوصف، دراسات بيداغوجية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص 34، 35 .

(10) – نفسه، ص 35 .

(11) – نفسه، ص 35 .

(12) – الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 3/ 5، 6 .

(13) – محمد النويري، البلاغة وثقافة الفحولة – دراسة في كتاب العصا للجاحظ، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، دط، 2003، ص 5 .

(14) – نفسه، ص 5 .

(15) – نفسه، ص 12 .

(16) – نفسه، ص 37 .

(*) – خفيف الحاذ : قليل المال والعيال .

(*) – الركوة كما في القاموس : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء .

(17) – الجاحظ، البيان والتبيين، 3/ 47 .

(18) – محمد النويري، البلاغة وثقافة الفحولة – دراسة في كتاب العصا للجاحظ، ص 51 .

(19) – الجاحظ، البيان والتبيين، 3/ 48 .

(20) – نفسه، 3/ 45 .

[21] – علي آيت أوشان، ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلمات : الصورة – الحجاج – المقارنة – الوصف، ص 43 .

[22] – نفسه، ص 45 .

[23] – نفسه، ص 45 .

[24] – نفسه، ص 45 .

[25] – نفسه، ص 45 .